"لغة الوعي في الخطاب الشعري الجزائري في ديوان الحرف والضوء عند محمد بلقاسم خمار"

The language of consciousness in Algerian poetic discourse in the Diwane of *'Al Harf wa Addaw'* by "Mohamed Belkacem KHIMAR

نور الدين مزروع1
جامعة محمد خيضر ، بسكرة (الجزائر)/nouraldinmazroua1987@gmail.com

تاريخ الاستلام:2020/07/28 تاريخ القبول: 2021/03/05 تاريخ النشر: 2021/12/26

ملخص: يعدُّ الشاعر" محمّد بلقاسم خمّار" ت(1931-2016م) شخصيّة أدبية ذات طابع متميّز في الشعر الجزائري المعاصر، خاصة في أشعاره الملتزمة بقضايا شعبه الجزائري، وقد سعى في ديوانه الحرف والضوء – الصادر سنة (1981م) – إلى إبراز بعض القضايا الاجتماعية المتعلّقة بهموم ومشكلات شعبه من خلال خطاب شعري واعٍ، مجسّداً بين معطيات الواقع الراهن الذي عاشه الشاعر، وبين مستقبل يلتمس فيه قضايا الحرية وحقوق الإنسان، وبناء جيل جديد يحمل مختلف مفردات التربية والقيم الإنسانية-

الكلمات المفتاحية: لغة الوعي، الخطاب، الجزائري، الحرف والضوء، بلقاسم خمار.

Abstract: The poet Mohamed belkacem kammar 2016-1931)) is considered a literary figure with a distinct character in contemporary Algerian poetry ,especially in his poems commited to the causes of his Algerian people in his poetry (the letter and light) issued in(1981),he sought to highlight some social issues related to the concerns and problems of his people ,through a poetic discourse attentive reflecting the data of the current reality in which the pet lived,and between a future in which he seeks issues of freedom and human rights and building a new generation that carries various vocabulary of education and human values

Keywords: Language: The language of consciousness, Discourse, Algerian, Crafts and Light , Belkacem Khemmar.

المؤلف المرسل: نور الدين مزروع1
nouraldinmazroua1987@gmail.com

مقدّمة:

ظلّ الإنسان المعاصر يبحث – بشكل لافت–عن ماهيته وعن محله في الوجود، للتغلّب عليه مشاعر القلق والاضطراب، فصار يبحث عن منافذ يسرب من خلالها تلك الانفعالات المكبوتة بداخله، فلم يجد سبيلا إلى ذلك، إلا من خلال تعبيره الشعري عن وجدانه، ومن ثمّة التطرق إلى أهم قضايا إنسانية تتعلّق بوطنه.

ثمّ ليس من الميسور في كل جيل أن نظفر بشاعر متعلِّق بوطنه، أو مستوعب لروح قومه، أو مهتم بالمثل الإنسانية العليا اهتماما يستحوذ مشاعره، فتذوب عناصره عناصر فنّه في هذا الشعور، ويخرج من الأثار الرفيعة ما تتبلور فيها عواطفه وتفكيره، وأمانيه، وأحلامه، وأخيلته، في وحدة منسجمة جذَّابة (أبو شادي، قضايا الشعر العربي، 2012م).

ولعلَّ الشاعر "محمد بلقاسم خمار" (خمار، 2010) من هؤلاء الشعراء الذين استوعبوا واقعهم، وحاولوا تصويره تصويرا يبث الوعي للمتلقي المعاصر، وهذا ما نسعى إليه في دراسة تحليلية فنية في الموضوع الموسوم: **لغة الوعي في الخطاب الشعري الجزائري في ديوان الحرف والضوء عند "محمد بلقاسم خمار"**. وذلك من خلال الكشف عن الإستراتيجية التي تناولها الشاعر في ديوانه وما انطوى عليه من قضايا قومية تبثّ للقارئ روح الوعي والتأمّل في واقعه، ومن ثم إلى كشف حقيقة مصيره.

وعليه نطرح الإشكال الآتي: كيف بنى محمد بلقاسم خمار خطابه الشعري بلغة واعية تستثير المتلقي المعاصر؟، وكيف جعل الشاعر من الواقع الراهن الذي يعيشه انموذجا يعتبر به لتحقيق مستقبل يبشّر بالخير؟.

أولا: الشاعر بلقاسم خمار، بين معطيات الماضي، ووقائع الحاضر وتباشير المستقبل :

إذا كان الشاعر الحق هو الذي يرقى به فنّه إلى أن يؤلّف بين معطيات الماضي وواقع الحاضر، وتباشير المستقبل، في لوحة جمالية متميّزة، فإن "بلقاسم خمّار"، قد استطاع بمنتهى البراعة الفنّية أن يجمع خيوط مشهد هذا الجيل الذي يعاصر التحوّلات الاجتماعية

العميقة، فيها على صعيد الإنسانية كلّها، صراعا مريرا بين قوى الخير وقوى الشر، بين مطالب الحق ومطالب الباطل، فمثلا يستدعي الشاعر ذكرياته، مستلهما ثقافته الواسعة، يقول مخاطبا شعبه (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

يـا شَعْبنا ! . .
في سالفِ الأزمـان كُنْت السَيّد
كنت الّذي يـهدّم أوْ يُشَيّـد
وكُنت أنت المبدع الفنّـان
تعنـو لك الرُّجُولـة
وتنتشي بذكرِكَ الرُّكبـان
بقصَصِ البطُولـة
بشيـمِ النـخْوةِ، والصّفَاء، والبَيـان
يـا شعبَنـا، في سالف الأزمـان..!

لقد حاول الشاعر في هذا المطلع من قصيدته أن يجسّد تلك الصورة المثالية التي رويت عن التاريخ الإسلامي سالفا، وما يجب أن يحتذى عليها في هذا العصر، فذكر بطولة العرب ونخوتهم وإخلاصهم من أجل جعل كلمة الله العليا، بالإضافة إلى ما تمتعوا به من بلاغة وفصاحة واهتمامهم بلغتهم العربية، لتأتي ثورة نوفمبر، محتذية بذلك، قوله (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

وكِدْتَ تصبـح في خبَرِ كـانْ
وأنْت في كـان وكـان
لولا ريـاحٌ غاضِبة
ووخَزات من ضمِيرك المـفتُون
وولـولات صــاخبَة
هـزّتـك كي تـفِيق
وتملأ الطريـق

فقمـتْ

وكنـت أنـت المبـدع الفنّـان

لقد أراد الشاعر في قصيدته أن يرسّخ قيماً مثالية لشعبه وللأجيال القادمة من شباب وطنه، فيصوّر كيف تتربّع الحرّية على أذهان الشعب، رافضاً كل القيود والذلّ والمهان، والاستعْباد، فأتت قصيدته كتحفيز للأجيال القادمة، على النهوض واليقظة، وشحذ الهمم، من أجل الوصول إلى أعلى مراتب المجد .

ثانيا: الحرّية الوطنية مطلب رئيسي عند بلقاسم خمار :

لقد كان النّضال السياسي الذي يقوم به الشاعر الجزائري كلّه يرجع إلى مطلب واحد هو التحرّر من كل القيود التي تكبّل طاقات الشعب، فضلاً عن المطالبة بحق كل فرد جزائري أو عربي وإخراجه من دائرة التبعية والاحتواء والتهميش، إلى دائرة التفرُّد والخصوصية، وتحقيق الأنا الضائع. وهذا ما سعى إليه شاعرنا "محمد بلقاسم خمار" في دعواته تجاه أجيال شعبه من وطنه، إذ تشمل أغلب قصائده في التخلص من العبودية لشخص أو جماعة أو للذات، ثم التخلص من الضغوط المفروضة على شخص ما لتنفيذ غرض ما، والتخلص من الإجبار والفرض، وهذا ما نلفيه في خطابه الشعري الموجه للأطفال؛ حيث نلحظ لغة أخرى تكاد تكون من نوع خاص، بما تتمتع من معاني سامية، وإيقاع موسيقي مدوّي، نذكر قصيدته بعنوان: "لتنزل الصاعقة" يقول (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979) :

أطفالنـا يـا فجرنـا الوهّـاجْ
أدعوكمُو.. من خاطِري المهتـاجْ
أن تسألُوا كالرَّعـد في احتجـاج:
وترفضـُوا العيشَ مع الأعـلاج

* * *

أخـافُ عقبـى الصمتِ يـا فتيـان
أن تكبرُوا.. ويكْبر الخـراج
فتخلعـُوا أجنحَة العقْبَـان
وتبدّلـوا بهـا ريـش الدّجـاج

" لغة الوعي في الخطاب الشعري الجزائري في ديوان الحرف والضوء عند محمد بلقاسم خمار"

يفتتح الشاعر رسالته في هذا المقطع الشعري بأسلوب نداء يخاطب بذلك أطفال بلاده، مع حذف حرف النداء في قوله: " أطفالنا" وذلك بهدف التقرب إلى هذه الفئة وبث روح الانتماء لجيل وطنه الجديد، ثم لفت انتباههم من أجل النهوض بأنفسهم؛ وذلك أنّه يأمل بهم التغيير والخروج من دائرة الذل والمهان .

كما يلجأ الشاعر في بعض قصائده إلى ظاهرة الرمز وذلك في استعمال اللفظة في معناها المجازي أو الرمزي بكل ما فيه من توتّر، كل ذلك يعدُّ استعمال يجعل جدلية التعامل اللّغوي في الاستعمال فنّا شعريا رائعا. معبّرا بذلك كلّه عن واقعه المعاش، طالباً التغيير فيه، رافضا كل مظاهر التسلُّط والاستعباد، فمن الرموز التي وظّفها الشاعر في قصائده، والّتي لها علاقة وطيدة بالحرّية هو استخدام رمز "الحمام"، والذي يشير بدوره إلى قضية السلام، ففي رائعة له:" بالله يا أطفال"، يوجّه محمد بقاسم خمار خطابه إلى هذه الفئة المهمّة من المجتمع، قوله (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979) :

في ساحَة البرِيد
يـا أطفـال
سرْب الحَمـام أخرص التغْريـد
وطـار مَذْعُوراً بـلا أحـلَامْ
يهيم فـوْق البـحْر
كأنّـه مـزن من النبـال
يُسـائلُ انتفـاضَة الأعـلام
عن عـاملٍ آب بـلَا زنـدَيـن

فالنصُّ مفتوح فضاؤه واسع له عدّة دلالات، فالشاعر يعبّر بـ"الحمام" عن قضية السلام، وهو مطمح كل إنسان في الوجود، ففي البداية عبّر عن حال واقعه الأليم، وذلك باستخدام وصف التكنية من خلال عبارة " طار مذعورا بلا أحلام"، فذكر بأنّ الحمام طار ذعرا من الوضع الفاسد المعاش، ولم يحقق هدفه، وكل ذلك من باب الكناية عن انعدام السلام في وطنه وعالمه العربي، ولكن كعادة بلقاسم خمّار يستبشر ويتفاءل بتحسن الوضع، وبحلول

السلام في وطنه، آمرا الأطفال بطرح الإشكال متى عودة السلام في وطنه؟، طالبا إيّاهم بطريقة غير مباشرة الإجابة عن السؤال بالحرص في تحقيق كل من يجلب السلام ويتعلّق به، يقول (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

وصَوْتٍ ثأْر نـازفِ الوَرِيـدْ
كـجرس يدقُّ من مـاضٍ دفِين
أرسـت بـه بـاخرة ((المستقبل))
في شـاطئ الجزائر الحزيـن
بالله... يا أطفَـال . .
هُبّـوا مع الحَمـام
واغرقُوا النسيـان في هذا السّؤال
متى.. متى ينتقم السـلام
وتلتـقي طيُورنـا
عزيـزة التغريـد
في سـاحَةِ البرِيـد..؟

تناول الشاعر صورة بيانية أخرى في أكمل الروعة جسّدتها عبارة " وأغرقوا النسيان في هذا السؤال"، حيث أراد أن يزرع الأمل في قلوب الأطفال آمر لهم بأن يقضوا على كل ماض مؤلم، فاستخدم كلمة "أغرقوا"، فجعل من الشيء المعنوي مادي محسوس المتمثل في "النسيان"، على سبيل استعارة مكنية مما أضفى للصورة الشعرية في القصيدة قوَّة في المعنى ومبالغة في الوصف، وأفاد في الوقت ذاته بضرورة التغيير والسعي في تحقيق السلام بطريقة غير مباشرة، والمتمثلة في الإجابة عن السؤال. وعليه، «فليست الغاية تكمن في ووضوح المعنى فقط بل تتعدّى ذلك إلى إيحائها بعظمة الذوق والدلالة على جوهر اللّفظ لتصل في النهاية إلى إفادة المقاصد الّتي تبرز المعنى وتجلّيه» (حسني، 2018).

وهكذا ظلّ الشاعر يأمل بتغير الوضع المأساوي الذي يعيشه العالم العربي، وما يتلقاه من ذلّ ومهان، وانتكاسة أمام الدول الغربية الاستعمارية، ومن ثمّة تحقيق كل مطالب

الحرية التي من حق كل إنسان في الوجود. ليصرّح الشاعر بالسلام في قصيدة أخرى بعنوان "لو أننا"، يقول (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

النصرُ.. والخلودْ للفدائِيّين
وسوف لن نقتحِم الرّدى
الموتُ والدّمار للمغتصبِين
لتنطلق حمائم السـلَام
سَوْف نمُوت واحد فواحداً
آمـالُنا أكبَرُ من عشرين عام
والنصر للعرب..!؟
«يا أمة»..
لو أننـا..؟

ولعلّ في هذه القصيدة ثورة واضحة لعداة السلام، متحدّيا كل من الأمم المتحدة، والصهاينة، في أمله بحلول النصر للعرب، واصفا تحدّي العرب وأملهم، الذي يراه أكثر بكثير من القوّة التي يتمتّع بها الاستعمار. والجميل في الذكر، عندما يمثل الشاعر وطنه الجزائر بأنّه وطن الحرية والسلام والوئام، يقول في قصيدة بعنوان: "أم المعجزات"، يصف وطنه بلسان الجزائر، يقول (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

أيها السائلُ عن سرّي الرهِيـب
سأغْنِيك.. ولكن لا أُجِيـب
أنا آياتي وحيدَات الصّفـَات
وزمَـاني ذكريـاتٌ خـالدات
فتأمّلْ
عندما يبسم فجر
يرتـمي، يلثم منًى الوجنـات
وتأمّل. .

عندما تشرقُ شمس
تنتشي فَوقَ جبيني بالحَياة.
أملأ البَيدا طيوراً.. أزرعُ الصخرَ نبَات
أنا.. والتاريخُ يدري ما الجزائِرْ..

إلى قوله (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

وبصحْرائي الغَنيّة
نصب المجد خياما أبدية
أصبحت فيها رمالي ذهبا

تتكثّف الصور الجمالية في هذا المقطع الشعري المستل من قصيدة للشاعر طويلة، فجعل من أمور مادية وأخرى معنوية أشياء تنبض بالحياة؛ فالفجر بابتسامته، يزيد الوطن جمالا، بينما الشمس بإشراقها، تبثّ روح الحياة والأمل، لينتقل إلى التكنية، حيث أراد الشاعر أن ينسب المجد إلى أهل الصحراء من وطنه، فعدل عن نسبته إليهم مباشرة، ونسب المجد إلى ما له اتصال بهم، وهي الخيام على سبيل (كناية عن نسبة)، وبهذا «تبرز أنّ غاية الكناية هي غاية البلاغة التي لا تخرج عن عناصر ثلاثة هي: الإخبار والإقناع والإمتاع» (حسني، 2018).

ثالثا: الحس الثوري ودوره في التوعية لدى القارئ:

وركحا على ما سبق يتضح لنا مدى اهتمام الشاعر بالحرية وأمله بتحقيق قضاياها في وطنه. ولكن عندما تتماطل الحكام العرب وتتقاعس في حلّ قضيتها، اتجاه الاستعمار تتحرّك حينها قرائح الشعراء، وتلتهب مشاعرهم وأحاسيسهم بعاطفة ساخنة، مسلّطة لسانها بكل ما تمتلكه من قوّة القول وبلاغة الكلام إلى أهم فئة في مجتمعه وهي فئة الحكّام، نذكر قوله (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

من قمّة خجلِي أدعُوكم
من ثورةِ أحزان الأمّة
من تاج كرامتِنا يهوي
يتمرّغ في قاع الوصْمة

" لغة الوعي في الخطاب الشعري الجزائري في ديوان الحرف والضوء عند محمد بلقاسم خمار"

من حيرة إنسانِ الدُّنيا
في طولِ مواقِفِنا القَزِمة
من كلّ شريف في وطني
يقتات العار مع اللُّقمة
من شوق طفُولتِنا الظامي
للصدْر الدافئ.. للبسْمَة
من روحي فدائي شهمٌ
يتحدّى النقمَة بالنقمَة
جُدرانُ الفقر تحاصِرُهُ
ولديكم مفتاح النّعمة

لقد حَفِلَت هذه المقطوعة الشعرية ببعض الانزياحات التركيبية، الأمر الذي أدّى إلى خرق الكلام المألوف، فجاء (المبتدأ) في بداية المقطع الشعري محذوفا مقدّر بضمير "أنا" في قوله: (من قمّة خجلي أدعوكم)، بينما جاء المبتدأ مؤخرا، المتمثل في لفظة "شهم" في قوله: (من روحي فدائي شهم)، كما نلحظ تأخير تقديم الفاعل عن الفعل والمفعول به، كل ذلك جاء منسجما مع الصور الشعرية. مما أدّى إلى قوّة تشكيلها ووضوحها، وهكذا فكلّما زادت طاقة الخيال في الشعر، وتكثّفت الصور الشعرية في بناء القصيدة زيدت جمالا في الشكل وقوة في المعنى.

وعليه؛ «فإنّ تجديد المعاني وابتكارها، وتوسعة الأفكار وتوليدها، هما أمران لا يتمّان إلاّ بواسطة تجديد اللغة والتبحر في معانيها؛ على حين تجديد اللغة نفسه لا يتم بتحنيطها فالمحافظة عليها كما هي قابعة في المعاجم، وكما هي جائمة في الصياغات الشائعة، والتراكيب القائمة، دون توليد أو تجديد؛ ولكن بتنزيحها، أو الانحراف بها عن التعابير الرّتيبة، والاستعمالات التعليمية المبسّطة، والتوسّع من خلالها في استعمال الاستعارة والمجاز لتفجير معان جداد، وبثق أفكار لم تك قائمة فيها قبلا» (مرتاض ، 2016).

وفي قصيدة أخرى نلفي الشاعر يجسّد لنا لوحة مأساوية حزينة لحال الشعب، موجّها خطابه إلى رؤساء الحكّام، موضحاً مختلف المظاهر المأساوية من (انتكاسة الشعب، غياب كرامته، انتشار الرذيلة من أجل لقمة العيش، شيوع الفقر في أواسط المجتمع)، وكل ذلك منجر بسبب ذلك التقاعس والتماطل، وغياب روح النخوة من طرف الحكّام، ولا يكف الشاعر في نقده السياسي اللاذع لهذه الفئة، نذكر قوله (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

أدعُوكُم يا قِمّة القمّـة
إن كان لـكم بعض الهمّـة
رفقا بالشعْب جَحَافِلـُه
تتمنّى الموت ولا الغمّـة
رفقاً بالفتْح وقد رضِيَت
بالحرب، لها شرف القمّة
رفقا بمصير ضحَايـاكُم
ما بين الترعـة والحمّـة
رفقاً بعرُوبتنا.. صمتا . .
ودَعُونـا أحــرارا.. رحْمـة
فدعُونا يا قوم دعُونــا
الشعب أساس لا القمّـة
ودعوُنا بالله دعُونــا
الرَّحمة.. هل فيكم رحمـة!!؟

وعليه؛ فإنّ الشاعر قد حمّل كامل المسؤولية إلى الحكّام، في ضياع الوطن العربي؛ وذلك بسبب سياستهم المكرّسة للاستعمار، وأساليبهم المضلّلة التي تنبعث منها رائحة الخيانة وعدم إخلاصهم لوطنهم؛ ولذلك يأمرُهم بأن يكفّوا من كل هذه الأساليب، وأن يفكوا القيد على الشعب المحروم، ويتركوه في التمتع بحريته الوطنية، وأن يرحموه إذا كانت عندهم رحمة.

" لغة الوعي في الخطاب الشعري الجزائري في ديوان الحرف والضوء عند محمد بلقاسم خمار"

ولعلّ ما ساعد الشاعر في تشكيل صوره بهذا الجمال الطافح والإبداع الباهر استخدام ظاهرة التكرار والبارزة في تكرار فعل "دعونا" وهي خاصية جمالية بارزة من خواص الأدب والفن إذ تركت نغما موسيقيا رائعا، بالإضافة إلى إثارة المتلقي، وتعظيم الذنب العظيم المقترف من طرف الحكّام. وهكذا التكرار يعكس ملامح رؤية الشاعر النفسية والفلسفية، التي تكشف عن موقفه الحقيقي من الحياة والكون، والطبيعة، بالإضافة إلى ما يحتويه من إمكانات تعبيرية فهو في الشعر مثله لغة الكلام يستطيع أن يُغنِيَ المعنى ويرفعه إلى مرتبة الأصالة (بن صالح، 2008).

والشاعر في قصائده يكتب عمّا يختلج في وجدانه، أو ما تأثر به من الحياة الاجتماعية السائدة في مجتمعه، فيستقبل كل ما يلاحظه ثم يستخرج مادته شعره، فكلّما كان الشاعر صادقا في مشاعره وتصوير حياة مجتمعه يبقى شعره راسخا قويا وذا رونق وجمال، وجميل أن تكون دعوة الشاعر في البحث عن داء الخمول الذي أصاب الأمة العربية، والوطن العربي برمتّه، يقول (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

إذا استوطن الداءُ في أمّـة
فأَولـى بتحْريرها خنجَرْ
يمزّق أوصال علّتهـا
لينجاب عن جسمها الخطـر
ولا خير في أي حشْدٍ كَبِيـر
يلمْلمُـه الكيدُ والكـدَرْ
فكَمْ مَرّة هَزم الأكْثَـرَ
وأشرقَ في القلّـة الظّفَـرَ

وهكذا فالشاعر في هذه المقطوعة المستلّة من قصيدة طويلة، يحاول أن يبعث الوعي إلى حكام العرب، وإلى الشعب قاطبةً، فيوضّح أن ليس العبرة بالكثرة، وإنما رأس الأمر هو ما يعيشه الإنسان من وعي وثقافة، تجعله، لا يرضى أن يعيش في ذل ومهان أو تقاعس أو تخلف، بل شعاره التجديد والتغيير من الواقع الراهن المعاش .

رابعا: شعر الأطفال وأهميته في توعية الفكر لدى الطفل:

إنّ نمو الطفل في جميع مظاهره المعرفية والحركية والانفعالية والاجتماعية تتأثر بمدى قدرتنا على إشباع تلك الدوافع لديه (عماد الدين، 1986) ، وقد استطاع الشاعر العربي تضمين موضوعات الحياة الكثيرة، فقدّم من قالبه جوانب وجودية غزيرة من تاريخية ودينية وواقعية وإنسانية وفكرية (بوعجاجة، 2009).

وعليه، فاهتمام الشاعر الجزائري المعاصر بهذه المرحلة واحدة من المعالم التي نستدل بها على تبلور الوعي العلمي في المجتمع، بل إنّ دراسة الطفُولة جزءاً من الاهتمام بالواقع والمستقبل معاً، حيث يشكّل الأطفال شريحة واسعة في المجتمع كما يشكلون الجيل التالي (الهيتي، 1988).

ولعلّ أجمل خطاب واعي يقدّمه الشاعر لقرّائه، حين يسعى به في القضاء من كل قيود الفشل والكسل، ومختلف مظاهر الخمول الّتي تهدّد الإنسان في حياته، وهذا ما عالجه الشاعر "محمّد بلقاسم خمّار" في قصيدته المعنونة بـ (النملة والصرصور)، موجّها ذلك إلى فئة مهمة من المجتمع، ألا وهم الأطفال، نذكر على سبيل المثال إهداؤه قبل أن ينطلق في الحكاية، يقول (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

إلى الكبار في سذاجَةِ الصّغَار
إلى تلاميذ(أكلُوب) في عمّـان
عيونُهم تخشى بريقَ النّور
أرجلهم غارقة في الوَحـل
أذرعُهم تلعَبُ بالنيـران
لا فكر، لا إحسـاسْ
لا شعـور..!
إلى عبيد المقعد النـوّاس
صبيان.. يا للعـار..!
إلي الَّذي يدعُونـه البطـل
جبينه لا يعرفُ الخجَـلْ

الهارب، المرتجف.. المغرور :
حكايـة النّملـة والصُرصُور

ممّا لا شكّ فيه أنّ تحليل القصيدة دفعة واحدة بكلّ أبياتها العديدة والتي تحتوي على قضايا ذات مداليل مختلفة تفضي في كلّ ينابيعها إلى معين واحد، وتصبُّ في جدول واحد، هو العمل، ومن ثمّة التحرّر من كل قيود الفشل والكسل والخمول، فمثلا استهلاَل الشاعر قصيدته بهاته العبارات، التي تكاد أن تكون قاسية ومحرجة على صاحبها(كبار في سذاجة الصغار، لا فكر، لا إحساس، لا يعرف الخجل، الهارب، المرتجف، المغرور)، وكلّها تبثّ الوعي وتلفت انتباه القارئ قبل قراءته للقصيدة، وتوضّح في الوقت ذاته مدى أهمية العمل في حياة الإنسان وعلاقته بحريته، بل هو مبدأ من مبادئ حريّته في وطنه .

ثم ينطلق الشاعر في موضوع قصيدته حيث قسّمها بعد الإهداء إلى مقدّمة، وعرض، فخاتمة، فمثلاً قوله في المقدّمة (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

قد كانْ يا ما كانْ
يحكِي لنَا عن سالف الأزمَانْ
جميع ما في الأرض كان كالإنسان
في صمته أو في فصاحته اللّسان
لا فَرق بين بلبُلٍ أو ثوْر
أو بين أَغنامِ القطيعِ والرعْيان
من قبل أن تستشوك الزهور
من قبل أن يعتنِق الإيمَان والحرمَان
كان الجمِيع حيوانْ

استهلّ الشاعر مقدّمته بأسلوب خبري ليوضّح الصورة لمتلقيه خاصة وأن المتلقي هو الطفل، يهيّأ بذلك قصّته التي تدور بين (النملة والصرصور)، فالشاعر اعتبر قصّته مقتبسة من الماضي السالف القديم قبل وجود الإنسان، إذ كانت البيئة حيوانية وكان الحيوان يتكلّم

ويفكّر كنظيره الإنسان، ثم لم يلبث الشاعر في مقدّمته أن دخل في القصّة، ولكن قبل سرد الأحداث والحوار الّذي هو بيت القصيد حاول أن يوضّح كلا من صورتي (النملة والصرصور) (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

وذات يومٍ أيُّها الصغارْ.!
أطلّت الشمسُ بأحلامِ النّهَار
وألهبت بنورها كلّ مكانْ
فانفجرت في مزبلة
تفاحةٌ معفّنَة
ومن لعابِ الوخم والدّيدَانْ
تكوَّن الصُّرصُور
بتاجِه الحقِير
وبجناحِه الّذي يجهْل أنْ يطِير
وقام كالسّكران
في كسل جذلان..
مكانهُ الأوسَاخ والأدرَان
زمانه أحقر من أي زمَان

تم عرض صورة النملة وهي متأهّبة في نشاط (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

ليسَ لها تاج ولا جنَاحْ
لأنها من موطن الأزلْ
من مقلة الصباح
تهزأ بالتَّاج وبالجَنَاح
تهزأ بالظلامْ
تحتقر الرعودَ والرّياح
تسمو على الصرير

لا تنامْ
سلامها الصراع والكفاح
مبدأها النّظام
صغيرةٌ.. لكنّها أقْوى من الجّبال
صامدة كأعظم الشّجعَان
ومذ أن لفَت على وسطِها الحزام
تحدّت الحرمَان والطُّغيَان
وجابهت في زحفِها جيُوشَ سليمَان
وكل ما في عرشِه من أنسٍ أو من جَان
حتّى كأن الله عند خلقها
قال لها كُونِي من الإيمَان

لقد حاول الشاعر في مقدّمته هذه أن يصوّر حال (النملة والصرصور) فبدأ بالصرصور حيث صوّر أنّه من بيئة معفّنة له جناحان في هيئة طيران لكنّه لا يطير، بالإضافة إلى رأسه الّذي يحتوي على قرنين كأنهما تاج يتباهى ويتبختر بهما. وفي مقابل ذلك تعيش بجانبه النملة التي لا تختلف عليه كثيرا من ناحية الشكل والضخامة، لكنّها تتميّز عليه بروح النشاط والمثابرة في عملها بالإضافة إلى الاستشراف ما سيحصل لها في المستقبل. ثم لم يلبث الشاعر أن أنطلق في عرضه لهذه القصّة وكان عرضه على شكل حوار دار بين (النملة والصرصور). لكنّه قبل أن ينطلق في الحوار استمرّ في توضيح صورة النملة والصرصور وكيف كانا يعيشان قبل اللّقاء؟، قوله (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

في لحظةِ انتشاء والأرضُ في إشراقَةِ الأصِيل
اعترض الصرصور درب النملة
يحمل في أطرافه مزمارا
وكانت النّملة في عَناء

ملقي على أكتافها عبء ثقيل
عبء من العتاد والغذاء
أكبر من ألف مرَّة من جسمِها النحِيل

وفّق الشاعر إلى حد بعيد في تصويره الرائع للنملة والصرصور، وكلّ ذلك من أجل تشويق القارئ وجعله أن يتخيل هذا الموقف وهذا اللّقاء الذي يحمل وراءه حوارا شيّقاً يحمل معاني وقيم سامية، قوله (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

قالَ لها يا صورة الشَّقاء
منذ متى وأنْت تكدحِين؟
قالت له: وأنت كيف جئت
من دوحة عرقة الأفياء
جذُورها تهزأ بالسّنين
قالت له: أراك خلفَ بُوق
أين تركت الفأسَ يا هجِين
لو كنت ممّا تدّعي لكانت
أطراف رجليك بقدمَين
قال لها خُلِقتُ للأماني
للرقص للغناء للتلحِين
وأنت يا مرهقة اللّيالي
ماذا ترى بالكدّ تبلغين..؟
هيا معي أعزف لحن حبّي
وللربيع أنت ترقُصِين
قالت له إنّي أراك صبّا
بكلّ مجرى لا بكلّ عين
هيّا معي أعطيك سرّ جُهدي

وحول البوق إلى سكين
قال لها وقد أشاح عنها
ابتعدي بسرّك اللَّعين
وراح في أعذارِه يغني
لتاجه لكنزه الثمِين
وراحَت النملةُ في ثبَات
تعجبُ من مصير الحزين
إذا أتى الشتاءُ بالعوادي
كيف يغدو ذلك المسكين..؟

إنّ المتأمل لهذا الحوار الّذي دار بين النملة والصرصور يجد عدّة قيمٍ نبيلةٍ يريد الشاعر إيصالها إلى المتلقّي، فبدأ بتصوير فكر هؤلاء الكسالى الخاملين وكيف يحسدون كل من تميّز عليهم فلا يقابلونهم إلا بالتثبيط والمعايرة، لكن عندما يكون الخصم ذا عقلٍ راقٍ وفكرٍ واسع لا يأبه بما قاله السفهاء بل يثبت في نشاطه ويجعل كلام خصومه تحفيزاً له ليستمرّ في بناء مستقبله، ولا يكتفي بذلك بل يوضّح بما وهبه الله من فكر وثقافة حقيقة الحق والباطل ولو كان مع خصمه.

ثم لكلّ بداية نهاية ولكلّ قصّة خاتمة، فيجعل الشاعر لقصّته خاتمة وهي الّتي تحمل العبرة لكل من استهان بالعمل والحق وتمادي في غيّه وباطله (خمار، ديوان الحرف والضوء، 1979):

ومرّت الأيّام..
والنملةُ الكادحةُ المناضلة
تعمل في صمتٍ وفي أقدَام
والراقصُ الصرصور في غرورِه
يعيش للأوهَام والأحلام
حتّى بدت تحت الشعاع غيمة

قاتمة..مرعدة الضرام
وثارت الرّياح من سباتها
وانطلق السيلُ بلا لجَام
وكانت النّملة خلف حصنها
قويّة البنيان
سعيدة، راسخة الأركان
ومن خلال كوّة أبصرت الصرصور
مرتمياً بحفرة
في النزع الأخير
وبوقه محطّم
وتاجه الحقير
حثالة موخُومة باهتة الألوان
لا عون لا نصير

***

وهكذا..
أشارت النملة في وجوم:
«نشأت من تفاحة معفَّنَة
في مزبلة
وعشت للنفاق للغرُور
وقد أتى مصيرُك المحتّم:
المَوتُ للأقذار يا صُرصُور..!»

جعل الشاعر في خاتمته حكمة رائعة موجّهة لكل من استهزأ بالحق وتمادى في باطله؛ فالصرصور عندما استهزأ بالنملة وعملها وما كانت تتوقّع حدوثة ليأتي اليوم الّذي لم يكن يتوقّعه ؛ حيث داهمه السيل فقتله وأصبح الصرصور جثّة هامدة تعتبر بها النملة وغيرها من النمل.

ولعلّ في هذه القصيدة من بدايتها إلى نهايتها تحمل عبرة لكلّ عاقل مدبّر، وأهم ذلك ما يتعلّق بالدين؛ فمن عمل في حياته الدنيوية خيراً وأعدّ ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، يلفى جهده و سبيله في مرضاة ربّه نجاةً من نار جحيم ودخول إلى جنّة النعيم، ومن استهزأ بالحق وتكاسل في العمل الصالح وضيّع دينه الّذي من أجله خُلِقَ فيكون مصيره مثل مصير الصرصور الهلاك، ومن ثمّة خسارة الدنيا والآخرة.

وهكذا تظهر بعض قصائد الشاعر الموجّهة للأطفال كمسرح طفولي مميّز يسعى في إدخال مفردات التربية والأخلاق الإسلامية في وجدان الأطفال وعقولهم ويلبّي احتياجات الأطفال في ظل عقول سليمة، ووازع ديني قوي، ولأن عالم الطفل يمتاز بالبراءة والنّقاء وتقبّل كل ما يوجّه إليه؛ لذلك أراد الشاعر أن يخصّص له أدبا خاصا به ينمّي في نُفُوسِه المعاني والمبادئ السامية، التي تدعو إلى كلّ ما ينفع الطفل في دينه ودنياه، ليسعى بذلك في بناء شخصية عالية للطفل والارتقاء به إلى أبعد حدود. كما يساعد الطلاب في مراحل دراستهم كلها على النمو الصحيح واتجاه قومي إسلامي حين تتهيأ لهم الظروف والإمكانات المناسبة (كنعان، 2011).

خاتمة:

– كان الشاعر "محمّد بلقاسم خمّار" من دعاة الفكر وأصحاب الخطاب الواعي.

– لغة الوعي عند "محمد بلقاسم خمّار" هي تعبير عن وجهة نظره أمام المشاكل والقضايا الاجتماعية والسياسية التي تعيشها بلاده.

– قصائد الشاعر قائمة في جوهرها بين نقد الحاضر المعاش، والأمل في تحقيق مستقبل زاخرٍ.

– يهتم الشاعر في ديوانه بكل قضايا الحرّية والسلام وبناء جيل جديد يحمل مختلف مفردات التربية والأخلاق الإسلامية.

– تعدّ قضية الالتزام واضحة في أشعاره، فهو يشارك هموم شعبه الاجتماعية والسياسية، ومواقفه الوطنية.

– اهتمام الشاعر الجزائري المعاصر بمرحلة الطفولة دليل على وعيه التام بسر تطور المجتمعات وازدهارها، ومدى أهميّة وأثر هذا الجيل في تطور الشعوب.

– ميل الشاعر في شعره الطفولي إلى الجانب القصصي يعدُّ مسرحا طفوليا يسعى فيه الشاعر إلى إدخال مفردات التربية والأخلاق الإسلامية في وجدان الأطفال وعقولهم.

المراجع

1. أحمد زكي أبو شادي. (2012م). *قضايا الشعر العربي* (المجلد دط). القاهرة، مصر.
2. أحمد علي كنعان. (2011). أثر المسرح في تنمية شخصية الطفل. *مجلة كلية التربية*، صفحة 26.
3. سامية بوعجاجة. (2009). شعر الأطفال عند سليمان عيسى. *مجلة المخبر*، صفحة 159.
4. عبد المالك مرتاض . (2016). أثر الانزياحات في تنشيط اللغة السردية– الإستعارة اللغة والإبداع–. *مجلة الكلم*، الصفحات 4–5.
5. محمد بلقاسم خمار. (1979). *ديوان الحرف والضوء* (المجلد دط). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
6. محمد بلقاسم خمار. (2010). *ديوان الخشب* (المجلد 1). الجزائر: دار أطفالنا للنشر والتوزيع.
7. محمد عماد الدين. (1986). *الأطفال مرآة المجتمع* (المجلد دط). الكويت: دار عالم المعرفة.

8. نوال بن صالح. (2008). دهشة التكرارالمفارق في قصيدة فكر بغيرك لمحمود درويش. *مجلة المخبر*، صفحة 274.

9. نور الهدى حسني. (2018). *البلاغة والأسلوبية اللغوية* (المجلد 1). إربد،الأردن: دار عالم الكتب الحديث.

10. هادي نعمان الهيتي. (1988). *ثقافة الأطفال* (الإصدار 17، المجلد دط). الكويت: دار عالم المعرفة.